بلاد التيجان السبعَة

ظلال الخرائط



رضا الحكيم الشعيري

رواية

بلاد التيجان السبعة

ظلال الخرائط

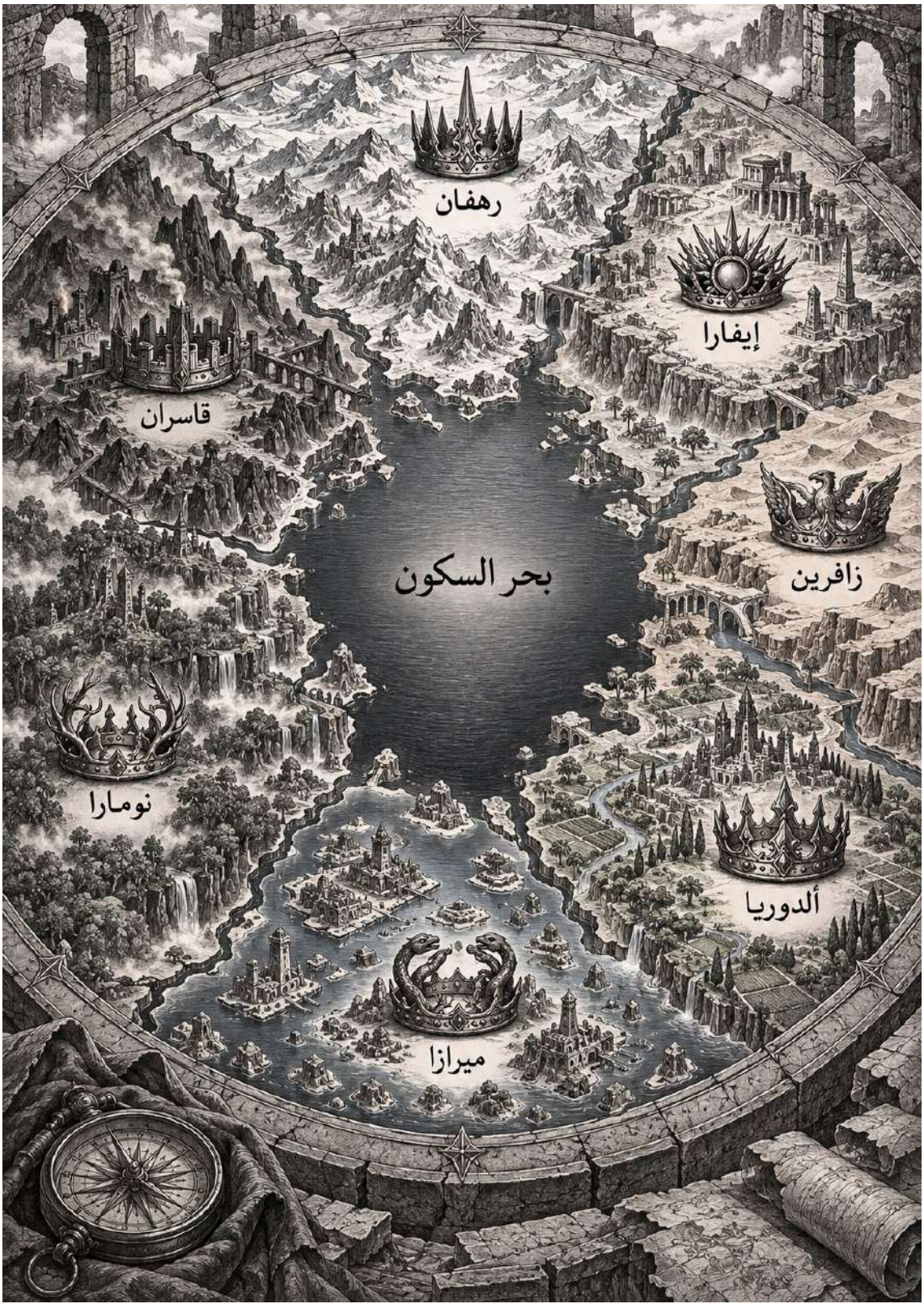
في عالمٍ ترسم التيجان حدوده،
تبدأ الحكاية بما أخفته الخرائط.

رضا الحكيم الشعيري

المقدمة

القارّة التي انكسرت

في البدء، لم يكن البحر في قلب القارّة.
كانت الأرض متصلة من جبال الشمال البيضاء إلى غابات الجنوب الدافئة، ومن صخور الغرب السوداء إلى سهول الشرق الذهبية. وكانت القوافل تستطيع أن تسير شهورًا من دون أن تركب سفينة، تعبر المدن والجسور والوديان، وتحمل معها الملح والحديد والحرير والحكايات.
ثم جاء اليوم الذي صار له في كتب التاريخ اسم واحد:
الانكسار العظيم.
لا تتفق الممالك على سبب وقوعه.
تقول بعض الكتب إن الأرض غضبت من البشر، وتقول أخرى إن السماء أسقطت نجمًا مشتعلًا فوق قلب القارّة. ويروي كهنة الشمال أن الملوك القدماء فتحوا بابًا كان ينبغي أن يبقى مغلقًا، بينما يقسم بحّارة الجنوب أنهم سمعوا، قبل الكارثة بليلة، صوتًا عظيمًا يصعد من أعماق الأرض، كأن شيئًا نائمًا منذ آلاف السنين قد استيقظ تحت أقدامهم.
لكن جميع الروايات تتفق على ما حدث بعد ذلك.
تشققت القارّة.
انفجرت الجبال من جوفها، وانقسمت السهول، وابتلعت الأرض مدنًا بكاملها. ارتفعت الأمواج فوق الأبراج، وسقطت الجسور التي ظن الناس أنها ستبقى إلى الأبد. اختفت طرق القوافل، وتحوّلت القرى الساحلية إلى جزر، والجزر الصغيرة إلى قمم وحيدة فوق ماء لا ينتهي.
وفي قلب العالم، حيث كانت تقوم أقدم الطرق وأعظم المدن، انفتحت هوّة هائلة واندفعت إليها مياه البحار من كل الجهات. ظلّت العواصف تدور فوقها أيامًا ولياليَ، حتى خمدت الرياح فجأة، وسكن الماء سكونًا مخيفًا.
ومنذ ذلك اليوم، سمّاه الناس:
بحر السكون.
لم يكن بحرًا عاديًا.


رهفان
إيفارا
قاسران
زافرين
بحر السكون
نومارا
ألدوريا
ميرازا

كانت مياهه تبدو هادئة حتى في أشد العواصف، ولا تعكس النجوم كما تفعل بقية البحار. السفن التي تقترب كثيرًا من قلبه تفقد اتجاهها، والبوصلة تدور فوق سطحه كأن الجهات نفسها قد نسيت مواقعها. أما البحّارة الذين عادوا منه، فقد عاد بعضهم بشَعر أبيض، وبعضهم بلا ذاكرة، وبعضهم يردد أسماء مدن لا توجد في أي خريطة.

ومع ذلك، لم يكن أمام الناجين وقت للخوف من البحر.

فحين انكسرت القارّة، انكسرت معها الممالك القديمة والقوانين والعهود. صار كل جبل حدودًا، وكل مضيق ساحة حرب، وكل جزيرة وطنًا يبحث عن اسم. خرج الناس من الخرائب جائعين وخائفين، والتفوا حول أقوى من استطاع حمايتهم.

وهكذا ارتفعت سبعة تيجان فوق أنقاض العالم.

سبعة تيجان، هكذا تقول الكتب.

◇

في الشمال، بين القمم التي لا يذوب عنها الثلج، قامت مملكة رهفان.

يروي أهلها أن مؤسسها صعد الجبل الأعلى أثناء الانكسار، وقاد الناجين عبر عاصفة أخفت الشمس سبعة أيام. ويقولون إنه شقّ لهم طريقًا بين الجليد بيديه، ثم بنى أول حصن فوق صخرة لم تستطع الزلازل كسرها.

ومن حول ذلك الحصن نشأت العاصمة هاروك، مدينة الأسوار البيضاء والأبراج الحادة، حيث تُقاس قيمة الرجال بقدرتهم على الوفاء، وتُحفظ العهود في قاعات من الحجر والجليد.

يؤمن أهل رهفان أن تاجهم هو أصل التيجان، لأن من احتمى بالجبال حين انهار العالم هو الأقدر على حكمه بعد نجاته.

◇

وإلى الشمال الشرقي، فوق هضاب عتيقة تملؤها الأعمدة والمعابد، قامت مملكة إيفارا.

تقول سجلاتها إن مؤسسها جمع العلماء والحكماء في الليلة التي سبقت الانكسار، فأنقذ كتب البشر ومعارفهم من النار والغرق. ولهذا يسمّي أهل إيفارا مملكتهم حافظة الذاكرة، ويرون أن الأمم التي لا تعرف تاريخها لا تستحق صناعة مستقبلها.

في عاصمتها تيرافا ترتفع المعابد الحجرية فوق الأرض الجافة، وتمتد السراديب تحتها كجذور شجرة لا ترى الشمس. هناك تُنسخ الكتب، وتُحفظ الأنساب، ويقرر الكهنة أي الروايات تستحق أن تبقى.

ويقول ملوك إيفارا إن الحق في الحكم لا يكون للأقوى، بل لمن يعرف الحقيقة.

غير أن الحقيقة في إيفارا لا تُمنح للجميع.

◇

وفي الشرق، حيث تشق الأنهار الزرقاء الصحارى الحمراء، نهضت مملكة زافرين.
يحكي أهلها أن الانكسار لم يفرّق الأرض وحدها، بل أضاع أسماء القرى وحدود الحقول وحقوق الماء، حتى صار كل من يحمل سيفًا قادرًا على اختراع حدوده. عندها جلس مؤسسهم أمام كتاب أسود وأخذ يكتب: أسماء العائلات، وطرق القوافل، وعهود الماء والأرض. ثم قاد من سجّل أسماءهم عبر الصحراء حتى بلغ الوادي الذي بُنيت عنده العاصمة سِجّال؛ مدينة الجسور العالية والأسواق الصاخبة والقصور المنحوتة في جدران الوادي.
كان أهل زافرين تجارًا ومحاربين ورحالة. فتحوا الطرق بين الجزر، وسيطروا على المعابر التي تمر منها القوافل، حتى صار الذهب يصل إلى خزائنهم قبل أن تصل الأخبار إلى قصور الآخرين.
ويقولون إن من يملك الطرق يملك العالم، وإن تاج زافرين لم يُصنع ليتبع تاجًا آخر.

◇

أما في الجنوب الشرقي، حيث الحقول الخضراء والأنهار الواسعة، فقد قامت مملكة ألدوريا.
تروي أناشيدها أن الناجين لم يموتوا جوعًا لأن الأرض عقمت، بل لأن الأقوياء أغلقوا المخازن وحبسوا الماء عن القرى التي رفضت طاعتهم. فجاء مؤسسها ففتح الأبواب، وقسّم الماء بين الحقول، ونقش على لوح من الحجر سبعة قوانين لا يستطيع ملك أن يغيرها وحده. وحول أول مخزن فتحه نشأت العاصمة سولان.
كبرت سولان بين الحدائق والقنوات والقصور المضيئة، وصارت مخازن ألدوريا تطعم مدنًا كثيرة في سنوات القحط. ولذلك يرى أهلها أن من يطعم الشعوب أحق بحكمها ممن يخيفها بالسيوف.
لكن حبوب ألدوريا لم تكن تُمنح بلا ثمن، وكل رغيف خرج من مخازنها كان يترك خلفه دَينًا لا تنساه سجلات القصر.

◇

وفي أقصى الجنوب، تناثرت آلاف الجزر فوق الماء كحبات عقد انقطع خيطه. هناك وُلدت مملكة ميرازا.
يقول بحّارتها إن حيّة بحرية عظيمة خرجت من الأعماق بعد الانكسار، وأخذت تحطم كل سفينة تحاول جمع الناجين من الصخور. فلم تنتظر مؤسستها هدوء البحر، بل نزلت إلى الأعماق وحدها، وروّضت الحيّة، واستخرجت من قلبها لؤلؤة زرقاء تضيء في الظلام. وبنور تلك اللؤلؤة رسمت الطرق الآمنة بين الجزر، وحيث انتهى أول طريق رسمته نشأت العاصمة سيلمارا؛ مدينة المرافئ الزرقاء والجسور الخشبية والأشرعة التي لا تنام.

لا يعترف أهل ميرازا بالحدود التي ترسمها اليابسة. فالبحر عندهم طريق، والسفينة بيت، والأفق وعد لا ينتهي. وهم يرون أن تاجهم هو الأحق بقيادة العالم، لأنهم وحدهم يستطيعون جمع ما فرّقه الانكسار.
غير أن للبحر ذاكرة، والبحر لا يعيد كل ما يأخذه.

◇

وفي الجنوب الغربي، حيث تغطي الغابات الجبال وتنحدر الشلالات بين الضباب، قامت مملكة نومارا.
تروي حكاياتها أن الانكسار لم يترك وراءه الخراب وحده، بل أحلامًا سرت بين الناجين كالحمّى، فصاروا يهاجمون بعضهم في الليل ويفرّون من أشياء لا يراها غيرهم. عندها دخلت مؤسستها الغابة التي كان الجميع يهربون منها، وعادت بعد ثلاث ليالٍ تحمل فانوسًا صغيرًا جمعت فيه تلك الأحلام، فعادت إلى الناس عقولهم. ثم قادتهم إلى الوديانً المخفية، وهناك بنوا إيلورا بين الأشجار والمياه.
يعيش أهل نومارا قريبين من الغابة، ويسلّمون فوانيسهم كل صباح إلى كتبة الأحلام، ويعتقدون أن ما يراه النائم لا يخصه وحده. ويقولون إن ملوكهم لم يرثوا التاج بالدم وحده، بل بما رأوه في منامهم قبل أن يجلسوا على العرش.
ولهذا لا يثقون كثيرًا بالمدن الحجرية، ولا بالرجال الذين يرسمون خطوطًا مستقيمة فوق أرض لم تكن مستقيمة قط.

◇

وفي الغرب، بين الجبال السوداء وفوهات النار، ارتفعت مملكة قاسران.
تقول ملاحمها إن القبائل الفارّة من حروب ما بعد الانكسار وجدت طريقها إلى الشرق مسدودًا بجبل لا يُعبر، فوقف مؤسسها أمامه ورفع مطرقته، وضربه حتى انشق نصفين. ومن قلب الجبل المشقوق أخرج الحديد، وبه أقام الناجون أول أسوار العاصمة دمهار.
كانت مدينة من الحديد والحجر، لا تُفتح أبوابها بسهولة ولا تُغلق مصانعها ليلًا. تعلّم أهل قاسران أن القوة وحدها تحمي ما تبقى، فصنعوا أفضل الأسلحة وأقسى الدروع، وربّوا أبناءهم على أن العالم لا يرحم الضعفاء.
ويقول ملوكهم إن التاج لا يستحقه من ورثه، بل من يستطيع الاحتفاظ به.

◇

وهكذا صار للعالم سبع ممالك، وسبعة عروش، وسبع حكايات عن البطولة.

وكانت كل سلالة تقسم أن دم مؤسسها هو أقدم الدماء، وأن تاجها هو التاج الأول، وأن بقية الملوك ليسوا إلا حكامًا مؤقتين ينتظرون اليوم الذي يعود فيه العالم إلى سيده الحقيقي.

بعد الانكسار بسنوات، اجتمع الملوك السبعة على جزيرة صغيرة عند أطراف بحر السكون. لا تذكر السجلات ما دار بينهم، ولا يعرف أحد لماذا استمر الاجتماع سبعة أيام أُطفئت خلالها النيران ومنعت السفن من الاقتراب.

لكنهم خرجوا منه بميثاق جديد.

قُسّمت البحار، ورُسمت الحدود، واعترفت كل مملكة بوجود الممالك الست الأخرى. وأمر الملوك بصناعة خريطة واحدة للعالم، تُنسخ عنها جميع الخرائط التي يستخدمها التجار والجنود والبحّارة.

سمّيت تلك الوثيقة خريطة التيجان السبعة.

ومنذ ذلك الوقت، صار رسم خريطة من دون ختم ملكي جريمة، وتغيير اسم جزيرة خيانة، وإضافة أرض لا تعترف بها الممالك هرطقة يعاقب عليها القانون.

كان رسّامو الخرائط يقفون أمام القضاة ويقسمون:

«أن يرسموا ما هو موجود، وألا يضيفوا ما لم تره التيجان، وألا يعيدوا إلى العالم ما قرر التاريخ نسيانه.»

لم يكن الناس يفكرون كثيرًا في كلمات القسم.

فالخرائط، في نظرهم، لم تكن سوى أوراق تحدد الطرق والموانئ والمسافات. ولم يسألوا لماذا تُحفظ النسخة الأولى من خريطة التيجان في غرفة مغلقة بسبعة أقفال، ولا لماذا يحمل كل ملك مفتاحًا مختلفًا، ولا لماذا لا يستطيع أي واحد منهم فتحها وحده.

مرّت القرون، وتحولت الشكوك إلى حكايات، والحكايات إلى خرافات يخيف بها البحّارة أبناءهم.

ازدهرت مدن وسقطت أخرى. تعاقب الملوك، واشتعلت الحروب، وعُقدت الزيجات بين السلالات ثم نُقضت. لكن شيئًا واحدًا بقي ثابتًا:

العالم هو ما تُظهره الخريطة.

وما لا يظهر عليها... لا وجود له.



كان الصباح في قصر تيرافا يبدأ دائمًا قبل أن تستيقظ المدينة.
تُفتح النوافذ العالية المطلة على الهضاب، وتُشعل مواقد البخور في الممرات، ثم يدخل الخدم الواحد بعد الآخر حاملين الماء والخبز والفاكهة ودفاتر اليوم. وعندما يرن الجرس النحاسي فوق البرج الشرقي للمرة الثالثة، يكون الملك أردان قد جلس إلى المائدة المستديرة في الغرفة الصغرى، حيث تُناقش الأمور التي لا تستحق اجتماع المجلس الكبير.
في ذلك الصباح، لم يكن أمامه ما يدعو إلى القلق.
انهار جزء صغير من قناة المياه الشمالية، وتشاجر تاجران حول ملكية مخزن في السوق، واشتكى قائد الحرس من تأخر الحدادين في تسليم الرماح الجديدة. أما معبد الساعات، فقد طلب اثني عشر لوحًا من خشب السرو لترميم أبوابه قبل موسم الرياح.
قال الملك وهو يضع الخاتم فوق إحدى الرسائل:
— أعطوا المعبد ستة ألواح. إذا صمدت أبوابه مئتي سنة بما فيها، فلن تسقط لأننا حرمناها من الستة الأخرى.
كان صوته هادئًا، كأن القرار لا يتجاوز أبوابًا خشبية فعلًا. رفع الكاتب ريشته وسجّل الأمر من دون تعليق.
جلست الأميرة سيراي إلى يمين أبيها، تقلب تقريرًا عن المدارس التابعة للمعابد. كانت في الخامسة والعشرين، ترتدي ثوبًا رماديًا بسيطًا يخلو من الذهب، ولا تحمل من علامات وراثة العرش إلا خاتمًا ضيقًا في إصبعها الأوسط.
قالت من دون أن ترفع عينيها عن التقرير:
— المعبد طلب اثني عشر لوحًا في العام الماضي أيضًا.
نظر الملك إليها.
— وهل حصل عليها؟
— حصل على عشرة. وسجلات المخزن تقول إنه استخدم أربعة.
توقف الكاتب عن الكتابة، بينما أخفى قائد الحرس ابتسامة سريعة خلف يده.
قال أردان:
— أرسلوا إليهم لوحين إذن، واطلبوا معرفة ما فعلوه بالستة الباقية.
صحح الكاتب الرقم، ثم انتقل إلى الورقة التالية.
في الجهة المقابلة جلس مِهراز، حافظ الأرشيف الملكي. كان أنحف من أن يملأ ثوبه الأسود، وأطول لحية من أن تبقى ساكنة عندما يتنفس. لم يكن يحضر الاجتماعات الصباحية عادة، لكنه جاء ليطلب عمّالًا لترميم المخزن الغربي بعدما تسربت مياه الأمطار إلى جدرانه.
قال وهو يزيح كأسه بعيدًا عن حافة إحدى الوثائق:

— الكتب تنجو من الحروب، يا مولاي، لكنها لا تنجو من الرطوبة.
قال الملك:
— كل عام تطلب مالًا أكثر لحماية الكتب.
— لأن الكتب تزداد، والمال لا يفعل.
رفعت سيراي نظرها إليه وقالت:
— ربما لو سمحت للطلاب بقراءة بعضها، لخفَّ وزن الرفوف.
لم يبتسم مِهراز، لكنه أمال رأسه قليلًا، وكانت تلك أقرب حركة عنده إلى الضحك.
مدّ الكاتب يده إلى التقرير الأخير، غير أن طرقًا مترددًا جاء من خلف الباب.
نظر الملك إلى قائد الحرس، فأشار الأخير إلى أحد الجنود. فُتح الباب بقدر يسمح بظهور وجه شاب يرتدي ثوب العاملين في الأرشيف. كان الغبار يغطي شعره وكتفيه، وبين يديه أسطوانة طويلة ملفوفة بقطعة قماش بنية.
قال الجندي:
— عامل من المخزن الغربي، يا مولاي. يقول إن الأمر لا يحتمل الانتظار.
بدا الانزعاج على وجه الملك.
— كل شيء في الأرشيف لا يحتمل الانتظار عند مِهراز.
لكن حافظ الأرشيف لم يرد. كان ينظر إلى الأسطوانة بين يدي الشاب.
قال:
— دعه يدخل.
تقدم العامل حتى بلغ طرف المائدة، ثم انحنى مرتبكًا.
— اسمي رائف، يا مولاي. نعمل على إزالة الخشب المتعفن من الجدار الداخلي للمخزن، وعندما نزعنا اللوح الأخير وجدنا تجويفًا خلفه. كانت هذه في داخله.
أشار الملك إلى الأسطوانة.
— كتاب؟
— ظننا ذلك في البداية.
فك رائف القماش ووضع ما يحمله فوق المائدة. ظهر أنبوب من خشب داكن، مسوّد الأطراف كأنه نجا من حريق قديم. لم تكن عليه كتابة، لكن غطاءه حمل ختمًا دائريًا محيت معظم خطوطه عمدًا.
لم يتحرك مِهراز لحظة رآه.
سأل بصوت خافت:

— من فتحه؟
— أنا ورئيس المخزن.
— ومن غيركما رآه؟
— لا أحد، سيدي.
مدّ مِهراز يده، ثم توقف قبل أن يلمس الأنبوب.
لاحظت سيراي تردده. وضعت التقرير جانبًا واقتربت قليلًا من المائدة.
قال الملك:
— افتحه.
رفع رائف الغطاء وأخرج لفافة سميكة صفراء الأطراف. بسطها بحذر، وثبت زواياها بأربعة أكواب حتى لا تعود إلى الالتفاف.
كانت خريطة.
ظهرت عليها جبال وأنهار وسواحل لا تشبه ما يعرفه أي بحّار في إيفارا. بدت اليابسة متصلة في مواضع تقطعها البحار الآن، وامتدت الطرق عبر مناطق لا توجد فيها اليوم إلا الجزر والمضائق.
اقترب مِهراز خطوة.
لم يكن وجه الملك قد تغير بعد. نظر إلى الخريطة كما ينظر إلى وثيقة قديمة تحتاج إلى تاريخ وتصنيف، ثم أشار إلى جانبها الشرقي.
— هذه القارة قبل الانكسار.
قال رائف:
— هذا ما ظنناه، يا مولاي. لكن الأمر ليس في شكل القارة.
وأشار بإصبعه إلى قلب الخريطة.
كان هناك خط رفيع بلون أزرق باهت يبدأ عند الساحل الغربي، ويمتد عبر اليابسة حتى يبلغ دائرة صغيرة في الوسط. لم يكن الخط مستقيمًا تمامًا، بدا كأنه رُسم فوق الخريطة بعد اكتمالها بسنوات طويلة.
قال العامل:
— عندما فتحناها لم يكن هذا الخط موجودًا.
ساد الصمت.
تابع رائف، وقد ظن أن أحدًا لم يفهمه:
— ظهر بعدما وضعناها فوق الطاولة. بدأ من هنا، ثم امتد ببطء حتى وصل إلى الدائرة. حاول رئيس المخزن مسحه، لكنه لم يستطع. لذلك جئت بها فورًا.
توقفت يد الملك فوق خاتمه.